

وربما كان ابن قادوس أهم الشعراء الفكهين في أواخر هذا العصر، وكان يعمل بديوان الإنشاء، وعليه تخرَّج القاضي الفاضل، وكان يتعلق بركابه حين خروجهما من الديوان. وقد تشبَّث ابن قادوس بشاعر أسواني أسود هو الرشيد ابن الزبير صاحب كتاب «جنان الجنان ورياض الأذهان»، فداعبه كثيراً، ومن شعره فيه قوله:

إن قلتَ من نارِ خُلِقْتَ وَقَتَّ كُلُّ النَّاسِ فَهُمَا
قلنا صدقتَ فما الذي أطفأكَ حتى صيرتَ فحماً

ويقول فيه أيضاً:

يا شبة لقمان بلا حكمةٍ وخاسراً في العلم لا راسخا
سلخت أشعارَ الوري كلهم فصرت تدعى الأسود الساخنا

وفي الأسود الساخ تورية واضحة، وقال أيضاً:

ذو عارض كالغراب لوناً وشارب مثل ريش بيغنا

وواضح ما في هذا الهجاء من ميل إلى الدعابة، وهي تتصل بالمزاج المصري، غير أنها دعابة تحمل غير قليل من السخرية، ولعل هذا الشاعر الأسود هو الذي جعله يقول في ذم السواد:

أهون بلون السواد لوناً ما فيه من حجة لناسب
لست ترى حمرة لخد فيه ولا خضرة لشارب

وكان ابن قادوس بارعاً في مثل هذه العلل، فهو إن غضب على شيء قبحه أو نزل به درجات في القبح. وأنت تراه لا يترك للسواد شيئاً يمكن أن يعتمد عليه في الدفاع عن نفسه أمام البياض، إلا أن يعود هو فيدافع عنه، ولكن لا في صورة الناس، وإنما في صورة المداد: